مِنْ أَسْبَابِ ضَيَاعِ التُّرَاثِ العَرَبِيِّ

المَخْطُوطِ

عماد عبدالحميد أحمد حسين

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مِنْ أَسْبَابِ ضَيَاعِ التُّرَاثِ العَرَبِيِّ المَخْطُوطِ

عماد بن عبد الحميد بن أحمد الحنبلي

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فما كان لهذه الأمة أن تقوم لها قائمة لولا أن مَنَّ الله تعالى عليها بإنزال كتابه على رسولنا صلى الله عليه وسلم، والذي أشاع في نفوس أتباعه روح العلم والتفكر، حتى حملت هذه الأمة مشاعل النور والعلم في العالم الذي لا يزال يستضيء بها إلى يوم الناس هذا، وقد كانت هذه الأمة معروفة بقوة حافظتها التي كانت وعاء العلم عند أوائلها، ولذلك قلَّت فيهم الكتابة، ثم مع حاجة المسلمين إلى تدوين العلم، خاصة مع دخول العجم في دين الله أفواجًا؛ انطلق المسلمون في عزم وهمة لا يعرفان التواني والفتور لقيادة قاطرة العلم في أنحاء المعمورة؛ فكتبوا من الكتب والصحائف ما لو قُدِّر أن يُنشر على وجه الأرض لغطَّاه، وأنشأوا المكتبات ودور العلم التي حوت ملايين المجلدات تحمل بين أوراقها الترجمة الواقعية لأول أمر نزل به الكتاب المُبين :﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق:١].

فما من حاضرة من حواضر العالم الإسلامي إلا واكتظت بالمكتبات الضخمة التي استقطبت طلبة العلم من الشرق والغرب، حتى أيقن الأوربيون خاصة أن قاطرة العلم يقودها المسلمون، وذلك طيلة عشرة قرون كاملة بلغت فيها الإمبراطورية الإسلامية أوج قوتها وعظمتها، ومن طالع كتاب (الفهرست) لابن النديم؛ قَرَّت عينه بما يراه من حركة تأليف ضخمة في خلال قرنين فقط إلى سنة ٣٧٧هـ، فكيف بما تلاهما من قرون تجلَّت فيها عبقرية المسلمين التي لا يزال ينهل من معينها الغرب، وإن أنكر المبغضون[١].

وقد كان من جراء حركة التأليف هذه، وما صاحبها من حركة ترجمة كتب العجم واليونان وغيرهم؛ أن ظهرت المكتبات ودور العلم الضخمة التي انتشرت في حواضر العالم الإسلامي؛ ففي بغداد ظهرت دار الحكمة، وفي القاهرة دار العلم، وفي طرابلس الشام مكتبة

---

(١): لمزيد الفائدة حول حركة التأليف هذه: يراجع كتاب المخطوط العربي للأستاذ الدكتور عبد الستار الحلوجي، ص:٩١-١١٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بني عَمَّار، وفي قُرطبة مكتبتها الضخمة، وغيرها من المكتبات التي اكتظت بسائر صنوف المعرفة والعلم.

لكن ثمة ظاهرة عالمية لم يسلم منها المسلمون، وهي ظاهرة إبادة المكتبات وإتلاف المخطوطات، هذه الظاهرة التي أودت بجزء من العلم والتراث الإنساني؛ فذهب أدراج الرياح، وبات أثرًا بعد عين، وإنه لمَدعاة لبكاء المخلصين من طلبة العلم وحملته؛ إذ ذَهاب العلم مُؤذنٌ بخراب الديار، وقد جعله النبي صلى الله عليه وسلم من أشراط الساعة، كما جاء في غير حديث، منها: ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال:"**لا تقوم الساعة حتى يُقبض العلم**..."...الحديث[١].

وفي هذا البحث المختصر الذي تشرفت بتقديمه لأستاذنا العلامة الدكتور عبد الستار الحَلوجي حفظه الله، وحرر لي درجة الامتياز فيه؛ نتعرض لبعض الأحداث التي أدت إلى ضياع قدر كبير من التراث العربي المخطوط، مما يُعدُّ عند المنصفين من أهل الأرض؛ أحد أكبر المصائب التي لحقت البشرية جمعاء، أعني الإسلامي منه، وإلا فضياع التراث البدعي يستوجب الحمد لله؛ لما حوى من الشرور والبدع، ويا ليت قومي يعلمون!

عماد بن عبد الحميد بن أحمد الحنبلي

القاهرة ١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١م.

---

(١): أخرجه البخاري: ١٠٣٦ و ٧١٢١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مسألة النهي عن كتابة العلم

قبل أن نتعرض لهذه الأسباب والحوادث التي أودت بكثير من تراثنا المخطوط؛ فنلقي الضوء على مسألة يُشغِّب بها المغرضون على تراثنا؛ يهدفون بذلك إلى قطع الصلة بين هذا التراث والوحي المُنَزَّل، وطمس معالم الأصالة فيما كُتِب في القرن الثالث وما بعده، وبعرضنا المُوجز لهذه المسألة نفهم بعض الأسباب التي أدت إلى إتلاف بعض الصالحين كتبهم، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

قد وردت آثار في كتب أهل العلم فيها النهي عن كتابة العلم، أقواها: ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "**لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه**"[١].

وقد نقل الخطيب البغدادي هذا المذهب عن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن مسعود، وأبي موسى الأشعري، وأبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم أجمعين، وكذا عن جماعة من التابعين رحمهم الله.

وقدت وردت آثار أخرى في الإذن بكتابة العلم، من أقواها: ما رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "ما من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أحدٌ أكثر حديثاً عنه مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنّه كان يكتب ولا أكتب"[٢]، وكذا قول النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه:"**اكتبوا لأبي شاه**"[٣]، وهو رجل يَمني طلب أن تُكتب له خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في فتح مكة، وقد نقل الخطيب هذا المذهب عن أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس، وأبي سعيد الخدري، وأنس بن مالك، وعن جماعة آخرين من الصحابة، وكذا عن جماعات من التابعين[٤].

---

(١): صحيح مسلم: ٣٠٠٤. (٢): صحيح البخاري: ١١٣. (٣): صحيح البخاري:١١٢، وصحيح مسلم:١٣٥٥.

(٤): بمكن مراجعة الآثار في النهي والإذن في كتاب تقييد العلم للخطيب البغدادي، وكذا جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقد تأيد هذا بما ثبت بالتواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يكتب الرسائل إلى ملوك الأرض، وأنه كتب فروض الصدقات، وغير ذلك مما هو مُخرج في الصحاح والمسانيد، وأيضًا بالنقول التي تثبت حيازة الصحابة والتابعين للصحف والكتب، ومن أقدمها صحيفة عبد الله بن عمرو الصادقة، وصحيفة همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنهم.

وإذن فقد وقع الخلاف في الصدر الأول في كتابة العلم، بل قد نُقل عن الواحد منهم المذهبان، وقد حاول بعض أهل العلم الجمع بين المذهبين؛ بأنه كان يُخشى على القرآن من كتابة غيره، وقيل: أن النهي لمن وُثق بحفظه، وقيل: أن النهي لمن لم يكن متقنًا للكتابة بخلاف عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما؛ فإنه كان متقنًا، ويؤيده حديث :"**إنا أمة أُمية لا نكتب ولا نحسب**"(١)، وقيل غير ذلك، وجنح جماعة من العلماء إلى القول بنسخ النهي بأحاديث الإذن، ومهما يكن من أمر؛ فإن الأمة قد أجمعت على الجواز، ومارست هذا الأمر بتدوين ملايين النسخ الخطية، قال ابن الصلاح:"ثم إنه زال ذلك الخلاف وأجمع المسلمون على تسويغ ذلك وإباحته، ولولا تدوينه في الكتب لدرس في الأعصر الآخرة، والله أعلم"(٢).

ويعجبني الأثر الذي ذكره الخطيب البغدادي في كتابه (تقييد العلم) أنهم قالوا لقتادة: نكتب ما نسمع منك؟ قال: " وما يمنعك أن تكتب وقد أخبرك اللطيف الخبير أنه يكتب ، ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾[طه: ٥٢](٣).

فاستقر الأمر عند الأمة بكتابة الحديث والعلم، حتى أنتجت هذه الأمة من الكتب ما لو ما فُرِش على وجه الأرض لغطاه، ثم إن جزءًا من هذا التراث الفكري قد أصابه التلف والعطب، وذلك من جراء أسباب وحوادث، منها:

---

(١): صحيح البخاري:١٩١٣، وصحيح مسلم: ١٠٨٠.

(٢): معرفة أنواع علم الحديث:١١٣.

(٣): تقييد العلم: ١٠٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

١- إتلاف كتب البدع والمذاهب الباطلة

قد ترك النبي صلى الله عليه وسلم أمته على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وقد خطَّ عليه الصلاة والسلام لأمته طريق الهداية، وبيَّن لهم صلى الله عليه وسلم أن هذا الطريق لا يمكن سلوكه إلا باتباع كتاب الله عز وجل، وسنته المطهرة، ولذا دأب خلفاؤه صلى الله عليه وسلم على التبري مما عداهما، وكان هذا سبيل السلف الأولين؛ فكان احتجاجهم في مسائل الدين بالسنن والآثار الواردة عنه صلى الله عليه وسلم، وعن أصحابه والتابعين لهم بإحسان، ثم مع قلة الآثار التي في يد بعض أئمة المسلمين، حيث لم تكن السُنَّة قد جُمعت وانتشرت في الأقطار، كما حدث في القرن الثالث وما بعده، مع قلة هذه الآثار؛ عمِل بعض الأئمة بالقياس والرأي، وكان هذا ظاهرًا في الكوفة، وتزعم الإمام الكبير أبو حنيفة النعمان بن ثابت هذه المدرسة لا بقصد معارضة الآثار، وإنما بقصد استنباط أحكام شرعية لا دليل صريح معه عليها، إذ قد صح عنه رحمه الله قوله:"إذا صح الحديث فهو مذهبي"، ولكن هذه المدرسة الكوفية العراقية قوبلت بمعارضة واسعة عند من توفرت الآثار عندهم من أهل الحجاز والمدينة، حتى صنف بعضهم في مثالب أبي حنيفة، ومعارضة أراءه بالسنن الثابتة، ثم استقر الأمر على إمامته رضي الله عنه، ولكنَّ جماعة من المبتدعة عارضوا السنن بالهوى والقياس والرأي؛ فتواترت نصوص الإئمة في ذمهم، وفي ذم كتبهم، حتى أفتى أئمة السُنَّة بوجوب إتلافها حفاظًا على من لا تمييز عنده من عوام المسلمين، وصغار طلبة العلم، وقد نقل ناصر الحزيمي[١] كلام ابن القيم في (الطرق الحكمية) عن مسائل الإمام أحمد في النهي عن كتب الرأي والبدع، وأنه كان لا يرى وضع الكتب أصلًا، ولا يرى إلا كتابة السنن، وهذا هو دأبه رضي الله عنه، إذ كان معروفًا بالاحتياط للشريعة، وقد صنف المسند وغيره، وما فيه إلا السنن والآثار.

---

(١): حرق الكتب في التراث العربي: ١٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومن تصفح كتاب (السُنَّة)[١] لأبي بكر الخلال الحنبلي في باب التغليظ على من كتب الأحاديث التي فيها الطعن على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وجد شيئًا من ذلك، ومن أقوى ما يُستدل به لهذا المسلك من أئمة السلف؛ إنكار النبي صلى الله عليه وسلم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما جاءه بصيحفة من صحف أهل الكتاب، فغضب، وقال بأبي هو وأمي:"**أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟!**"[٢].

وقد نقل الحزيمي من كتاب (ميزان الاعتدال) للذهبي أن ابن المبارك مزق ما كتبه عن ثابت بن أبي صفية بسبب سوء اعتقاده في أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه[٣].

وقد أحسن الأستاذ خالد السعيد إذ وصف في كتابه[٤] (حرق الكتب، تاريخ إتلاف الكتب والمكتبات) هذا المسلك بأنه تعصب محمود[٤].

ومن جملة الأمثلة التي تندرج تحت هذا السبب ما فعله صلاح الدين بمكتبة الفاطمية في القاهرة، والتي حوت الكثير من كتب البدع والضلالات التي كانت تؤصل للمذهب الإسماعيلي الباطني، والاعتقاد في النجوم، وسب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وغير ذلك من البدع والضلالات، وهذا من جهة النظر الشرعي، وأما البحث المجرد فيعتبر هذا المثال من أمثلة التعصب المذهبي.

وذكر خالد السعيد محارق الكتب التي دارت بين السنة والشيعة في قسم التعصب المذهبي، وأنا أدرجها هنا لما حوته من ضلالات وبدع من القول بعقيدة الرجعة والبداء، وسب الصحابة والسلف، مما لابد من التصدي له حتى لا ينفرط عقد الإسلام، فمنها:

أ- حرق كتب زعيم الشيعة رستم بن علي الديلمي في الري سنة ٤٢٠ هـ.

ب- حرق كتب فقيه الشيعة أبي جعفر الطوسي (ت ٤٦٠هـ) في بغداد.

---

(١) السنة للخلال: ٣/٥٠١-٥١٥. (٢): المسند: ١٥١٥٦. (٣) حرق الكتب في التراث العربي: ١٤. (٤) حرق الكتب: ١٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ج- حرق كتب الشيعة سنة ٥٧٤ هـ في بغداد بعد قتل زعيمهم ابن قرايا الرافضي.

د- حرق كتب سليمان بن حسن رئيس الإسماعيلية سنة ٩٠٢ هـ بمدينة تعز.[١]

٢- إتلاف الكتب بواسطة أصحابها

فمن ذلك أن جماعة من العلماء كانوا يخشون أن يحملوا أوزار من يتبعهم على الأخطاء التي في كتبهم؛ فكانوا يقومون بإتلافها، أو أنهم لم يجدوا من يقدرها حق قدرها، أو يخشون وصولها إلى من يُسيء فهمها، أو إلى مبتدع يعكس المراد من وضعها، وقد ذكر ياقوت الحموي في (معجم الأدباء) في ترجمة أبي حيان التوحيدي ردَّه على صاحب له قد لامه على إتلاف كتبه، قال:" وبعد فلي في إحراق هذه الكتب أسوة بأئمة يقتدى بهم ويؤخذ بهديهم ويعشى إلى نارهم، منهم أبو عمرو بن العلاء، وكان من كبار العلماء مع زهد ظاهر وورع معروف دفن كتبه في بطن الأرض فلم يوجد لها أثر، وهذا داود الطائي وكان من خيار عباد الله زهدا وفقها وعبادة، ويقال له تاج الأمة، طرح كتبه في البحر، وقال يناجيها: نعم الدليل كنت والوقوف مع الدليل بعد الوصول عناء وذهول وبلاء وخمول، وهذا يوسف بن أسباط حمل كتبه إلى غار في جبل وطرحه فيه، وسد بابه، فلما عوتب على ذلك قال: دلنا العلم في الأول، ثم كاد يضلنا في الثاني فهجرناه لوجه من وصلناه وكرهناه من أجل ما أردناه، وهذا أبو سليمان الداراني جمع كتبه في تنور وسجرها بالنار، ثم قال: والله ما احرقتك حتى كدت أحترق بك، وهذا سفيان الثوري مزق ألف جزء وطيرها في الريح، وقال: ليت يدي قطعت من ها هنا بل من ها هنا ولم أكتب حرفا، وهذا شيخنا أبو سعيد السيرافي سيد العلماء، قال: لولده محمد قد تركت لك هذه الكتب تكتسب بها خير الأجل فإذا رأيتها تخونك فاجعلها طعمة للنار"[٢].

وقد ذكر الحزيمي هذا النص بأطول من هذا، لكني اقتصرت على كونه فعل ذلك متأسيًا بغيره من السلف على جهة الورع والعبادة، ومن أراد استيفاء الأسباب الداعية إلى صنيعهم هذا؛ فإن في كتب التراجم غُنيةٌ وكفاية، والله أعلم.

---

(١): حرق الكتب: ٣٥-٣٦ (٢) معجم الأدباء: ٤/٢٩٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٣- الأسباب السياسية

وذلك أن الساسة لا يسمحون ببقاء الكتب التي تنقض سياستهم، فيعمدون إلى إتلافها كي لا تؤلب عليهم الرعية، وتُبين زيف ما هم عليه من سياسة جائرة، وقد ذكر الحزيمي أن عبد الملك بن مروان أتلف كتبًا في فضائل الأنصار، كي لا يصل إلى أهل الشام فيعرفون فضل الأنصار[١].

وهذه الرواية تطل منها رائحة الحط على بني أمية التي تنضح بها كتب الشيعة، وإنما لا نثبتها لعدة أمور، منها:

أ- أن في إسنادها الواقدي، وهو متروك في باب الرواية، خاصة إذا تفرد بما لم يوافقه عليه غيره، وهذه الرواية بتمامها في (الأخبار الموفقيات) للزبير بن بكار[٢].

ب- أنه لا تزال فضائل الأنصار تروى من لدن عصر الصحابة حتى استودعها المصنفون في بطون الكتب، ولم يمنع بنو أمية روايتها وكتابتها، وإلا انقطعت سلسلة الرواية برهة من الزمان، وهذا لا يستطيع أحد إثباته؛ فإن اتصال الأسانيد والتحديث بها كان متوافرًا في عصور الرواية، حتى فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو من هو بالنسبة إلى بني أمية؛ لم تخلو من هذا الاتصال في عصر بني أمية.

ج- أنه لم يكن يُخشى من فضائل الأنصار في شيء؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد حسم أمر الإمامة بقوله:"**الأئمة من قريش**"، وهذا متواتر[٣]، مع أمره صلى الله عليه وسلم الأنصار بالصبر حتى يلقوه على الحوض مع وجود الأَثَرة عليهم[٤].

وقد أشار خالد السعيد إلى مثال آخر، وهو إتلاف صلاح الدين مكتبة الفاطيين[٥]، ويمكنني اعتبار أن السياسة من جملة الأسباب التي دعت صلاح الدين الأيوبي إلى إتلاف كتب الفاطمية، حتى يمحو كل أثر لهم، ويجتث دولتهم من الأرض، ومن الطبيعي أن يكون في مكتبتهم الكتب التي تؤصل نسبتهم إلى آل البيت عليهم السلام، وهذا أدعى لأن يقوم من يدعو لهم مرة أخرى باعتبارهم من نسل النبوة المطهرة، وإنما يُحمد مسلك صلاح الدين؛ لأنهم كانوا يُمخرقون على العوام بادعاء النسبة الشريفة، كما أثبته غير واحد من المؤرخين، والله أعلم.

---

(١): حرق الكتب في التراث العربي: ٣١-٣٣. (٢): الأخبار الموفقيات: ١٢٤-١٢٦ (٣) نظم المتناثر في الحديث المتواتر: ١٥٨

(٤): صحيح البخاري:٣١٤٧، وصحيح مسلم:١٠٦١. (٥): حرق الكتب: ١٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٤- العصبية القبلية

أشار الحزيمي[١] إلى مثال ذكره القفطي في كتاب (إنباه الرواة على أنباه النحاة) عن كتاب (الإكليل) الذي وضعه ابن الحائك الهمداني في معارف وعجائب اليمن، وقد ذكر فيه مثالب قبائلها؛ فعمدت القبائل إلى إتلاف ما فيه من ذكر مثالبها، فلم يصل بتمامه إلينا لهذا السبب.

وأرى أن مثل هذه المثالب إنما يذيعها أعداء من وُضعت الكتب في مثالبهم، كما تفعل محققة الشيعة اليوم في نشر كتاب مثالب العرب لابن الكلبي، وهو رافضي متروك.

٥- العصبية المذهبية

إنما تُحمد العصبية إذا كانت للحق في مقابل الباطل والضلال، فإذا كانت بين أبناء الملة الواحدة والأصول الواحدة؛ فهذا مما يذُمُّه العقلاء والمنصفون، ولذا كانت العصبية الناشئة بين أبناء المذاهب الفقهية لأهل السنة والجماعة مما حذر منه العلماء والمصلحون، لكن ماذا يفعل المرء عند استحكام الهوى وخفوت صوت العقل وعدم قبول النصح؟

وهذا من حيث حقيقة الأمر، فأما بالنسبة للمتعصب؛ فقد يكون يرجو بهذا وجه الله تعالى والدار الآخرة لاعتقاده أن الكتب التي يحرقها ويقوم بإتلافها هي من كتب البدع والضلالات، والأعمال بالنيات.

ذكر الحزيمي مثالًا واحدً في هذا الباب عن بعض قضاة الشافعية إذ قام بإلقاء كتاب القاضي عبد الوهاب بن نصر المالكي الذي صنفه في نصرة مذهبه[٢]، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ولكن ذكر خالد السعيد في كتابه أمثلة عدة، منها:

أ- حرق كتب ابن حزم الظاهري (ت ٤٥٦هـ) على يد فقهاء المالكية في الأندلس.

ب- حرق كتب أبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) بأمر علي بن يوسف بن تاشفين المرابطي.

ج- حرق بعض أمراء دولة الموحدين - في الفترة ما بين منتصف القرن السادس إلى منتصف القرن السابع الهجري - كتب الفروع الفقهية المذهبية خاصة المالكية منها.

د- غسل كتاب (فصوص الحكم) لابن عربي الطائي الصوفي (ت ٦٣٨هـ) في المدرسة العصرونية بحلب.

---

(١): حرق الكتب في التراث العربي: ٢٣-٢٤.

(٢): المصدر السابق: ٢٤-٢٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

هـ- وكذا كان برمش بن يوسف التركماني المصري (ت ٨٢٣هـ) يحرق كتب ابن عربي أنى وجدها، وكان متعصبًا لأهل الحديث[١].

وما ذكره من حرق كتب ابن عربي يمكن وضعه في السبب الخاص بحرق كتب البدع؛ لما احتوته هذه الكتب من القول بوحدة الوجود وغيرها من العقائد الباطلة، وفيها أيضًا من الحق ما فيها، والله العليم.

٦- الإتلاف الناجم من قِبل الحروب والاضطرابات وخرق النظام

يقول الله عز وجل:﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[النمل:٣٤].

وهذا فعل أهل القوة بمن يستضعفونهم من المقهورين، وقد يكون هذا بحق، وأكثره بالباطل، فمن أبرز هذه الأحداث:

أ- مكتبة دار الحكمة ببغداد:

خربها التتار هي وغيرها من المكتبات، تلك المكتبة التي أسسها هارون الرشيد، وازدهرت في عهد ولده المأمون، يقول أستاذ المكتبات والمعلومات علي بن إبراهيم النملة:"اتسع ازدهار بيت الحكمة، وتوسعت في اهتمامتها، فلم تعد مجرد مكتبة أو مدرسة، أو مركزًا من مراكز النقل والترجمة، فحسب، وإنما أصبحت تحوي أيضًا مرصدًا فلكيًا، يحكي قصة هذا الرقي..."[٢].

هذه المكتبة التي حوت مئات الألوف من المخطوطات التي جمعت صنوف العلوم الإنسانية أتت على كثير منها آلة التدمير التترية الوحشية ساعة دخولهم بغداد سنة ٦٥٦ هـ، وقد ذكر بعض المؤرخين أن التتار أخذوا كتبها، وألقوها في نهر دجلة، ولكن لم يذكر أحد من المعاصرين لهذه الحادثة أنه رأى ذلك بعينه، أو نقلها عن ثقات، بل هي نقول مرسلة، وأقدم من نقل ما يفيد إبادة الكتب – فيما أعلم – هو ابن الساعي (ت ٦٧٤هـ) في كتابه (مختصر أخبار الخلفاء): حيث قال:"ويقال أنهم بنوا اسطبلات الخيول وطوالات المعالف بكتب العلماء عوضًا عن اللبِن"[٣].

---

(١) حرق الكتب: راجع هذه الأمثلة ٣٦-٣٨.

(٢): النقل والترجمة في الحضارة الإسلامية: ١٣٥.

(٣): مختصر أخبار الخلفاء: ١٢٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقد كنت أرجو أن أجد في تاريخه الكبير (الجامع المختصر في عنوان التاريخ وعيون السير) الذي أخرج جزءه التاسع مصطفى جواد في المطبعة السريانية الكاثوليكية في بغداد سنة ١٩٣٤م تفصيلًا أكبر، لكن نهاية هذا الجزء عند سنة ٦٠٦هـ!

ولو كان ما ذكر من إلقاءها في دجلة صحيحًا لذاع الخبر حتى يكتب عنه ابن الساعي لما فيه من عظيم النكبة والفساد، ولكن ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية لعله يكون هو الصحيح، فقد قال رحمه الله:" ولهذا لما استولى التتار على بغداد وكان الطوسي مُنجِمًا لهولاكو استولى على كتب الناس الوقف والملك فكان كتب الإسلام مثل التفسير والحديث والفقه والرقائق يعدمها، وأخذ كتب الطب والنجوم والفلسفة والعربية فهذه عنده هي الكتب المعظمة"[١].

فيكون الأوفق للمعقول أنها سرقت، وأتلف ما بها من كتب السنة على يد الطوسي الشيعي، ولا مانع أن التتار أعملوا في بعضها الخراب والحرق، أو ألقوا جزءًا منها في النهر، ولكن ليس للدرجة التي يتغير معها لون النهر، أو يعبرون عليها، والعلم عند الله"[٢].

ب- مكتبة المعصومة:

ذكر خالد السعيد في كتابه أنها مكتبة للدولة الرُستمية التي قامت بالمغرب الأوسط سنة ١٦٠ هـ، وقد داهمها أبو عبد الله الشيعي سنة ٢٩٦ هـ، وأتلف ما بها هي و(خزانة نفوسة) بالجبل، وأخذ منها كتب الرياضيات والفلك[٣]، وذلك فيما أرى لكون العبيدية المسمين زورًا بالفاطمية كانوا يعنون بالنجوم وحركاتها، وهذه المجموعة لابد أنها أُتلفت بعد ذلك على يد صلاح الدين في القاهرة، أو بِيعت، والله أعلم.

ج- مكتبة الوزير سابور:

أنشأها الوزير العادل الصارم سابور بن أردشير سنة ٣٨١هـ في الكرخ، وحمل إليها نفائس الكتب، حتى أنها حوت مائة مصحف بخطوط بني مقلة، وقد تأول خالد السعيد أنها أحرقت مرتين، مرة مع دخول طغرل بك بغداد ٤٤٧هـ، ومرة في الفتنة بين السنة والشيعة سنة ٤٥١هـ[٤].

---

(١): "(محموع الفتاوى ٢٠٧/١٣).

(٢): يراجع مقال أكذوبة تحول ماء دجلة الى أزرق بسبب إغراق الكتب خلال الغزو المغولي بقلم علي الكاش، جريدة دنيا الوطن الفليسطينية الإلكترونية ١٥-١١-٢٠١٧.

(٣): حرق الكتب: ٩٨-١٠٠.

(٤): المصدر السابق: ١٠١-١٠٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

د- مكتبة بني عَمَّار:

كان الحسن بن عمَّار الكُتامي (ت ٣٩٠هـ) أمين الدولة الفاطمية بالمغرب، وكان أهله مرهوبي الجانب حتى رماهم الزمان بكَلكَله، وصاروا من جملة الرعية بعد مقتل ابن عمَّار، ورحل منهم من رحل إلى طرابلس الشام، حيث أنشأ بنو عمَّار دار العلم سنة ٤٧٢ هـ، وقد ذكر بعض المؤرخين أنه كان بها ثلاثة ألف ألف مجلد، حتى استولى الصليبيون على طرابلس سنة ٥٠٣ هـ، وأحرقوا المكتبة، واستولوا على بعضها[١].

هـ- دار العلم الفاطمية بالقاهرة:

أنشأها الحاكم بأمر الله الشيعي الفاطمي في القاهرة سنة ٣٩٥ هـ، لتنافس دار الحكمة البغدادية وخزانة بني أمية في الأندلس، كما قيل، وقد تزينت بشتى صنوف الكتب والمعارف، حتى أنها حوت ستة آلاف مجلد في الطب وحده، حتى جاءت الشدة المستنصرية، وطالب الجنود الأتراك برواتبهم، وأتلفت العديد من الكتب، وبيع بعضها، ونزعت جلود بعضها لصناعة النعال للجنود الأتراك، ثم بعد ذلك بنحو مائة عام، استولى صلاح الدين على القاهرة، ونكَّل بالفاطمية، ونشر المذهب السني، وبيعت بعض كتب دار العلم، وابتنى مكانها مدرسة للشافعية[٢].

وأما ما ذُكِر من إحراق صلاح الدين الأيوبي لها؛ فيردُّه أن المكتبة قد ضعف شأنها في الشدة المستنصرية، فلم يبق منها إلى زمان صلاح الدين إلا أقلها.

ثم إن المؤرخين المعاصرين لصلاح الدين لم يذكروا حرقها، بل ذكروا بيعها[٣].

ويؤكد هذا المعنى الكاتب الحاقد على المسلمين لوسيان بولا سترون، حيث يقول:"عندما استطاع القائد الكردي صلاح الدين أن يستولي على السلطة في مصر سعد كثيرًا لأنه وجد المكتبات الفاطمية أمامه، ليس حبًا بقراءة الكتب، وإنما لكي يبيعها ويدفع بسعرها الرواتب لجنوده، وهكذا حطمها بكل سعادة ودون تأنيب ضمير لأنه كان يريد أن ينظف البلاد من كل أثر للمذهب الشيعي، ولم يبق عندئذ في خزائن الخليفة إلا مئة وعشرون ألف كتاب"[٤].

---

(١): حرق الكتب: ١٠٦-١٠٩. (٢): المصدر السابق: ١١١-١١٦.

(٣): راجع في ذلك: مقال صلاح الدين بطل أم حقير، رائد السمهوري، جريدة الوطن السعودية، ٢٠١٧/٥/٢٢.

(٤): كتب تحترق (تاريخ تدمير الكتبات) : ١٢٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقد ذكر قبل ذلك أن المكتبات تحطمت في الشدة المستنصرية، ثم أغلقت بعد ذلك في عهد الأفضل، ثم فُتحت بعد مقتله بشكل مُقلَّص، وهو ما يؤكد أن ما وصل لصلاح الدين فهو القليل منها.

ومهما يكن من شيء؛ فإنه لو ثبت إتلاف صلاح الدين لجزء منها؛ فيكون بمشورة فقهاء الشافعية لإبطال ما كان فيها من كتب الضلال والبدع المنافية لعقائد المسلمين، والله أعلم.

و- مكتبات الأندلس:

نشط الأمويون في جمع الكتب ونسخها، حتى صارت الأندلس محط أنظار العلماء في العالم، وكان يطلق عليها خزانة العلوم، وكانت فهارسها قد بلغت ٢٢٠٠ ورقة، ليس فيها إلا أسماء الكتب، ثم انتشرت المكتبات في الأندلس لتبلغ نحو سبعين مكتبة عامة، لا سيما في قرطبة، ومن أضخمها مكتبة ابن فُطيس، والتي بيعت مدة عام كامل لكثرة ما بها من الكتب[١].

لكن يد الخراب الصليبية قد امتدت لتقتلع زهرة مكتبات العالم في الأندلس، حيث أمر الكاردينال الكاثوليكي سيسنيروس عام ١٥٠٢ م بحرق كتب المسلمين، فأحرق الجند في ساحة الرملة بقرطبة نحو ألف ألف كتاب، ولا حول ولا قوة إلا بالله![٢].

---

(١): يراجع مقال: مكتبات قرطبة العامرة، محمد شعبان أيوب، موقع قصة الإسلام.

(٢) حرق الكتب: ١٢٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

الخاتمة

وبهذا يتبين أنه قد مرت بالعالم الإسلامي أحداث عظام أودت بكثير من المخطوطات العربية التي لو قُدِّر بقاء كثير منها؛ لصار وجه الحضارة الإسلامية أكثر إشراقًا، ولكن من فضل الله تعالى أن بعض هذا المفقود قد استوعبته الموسوعات العلمية التي ازدهرت في عهد المماليك، والتي تذكر كتبًا لا نرى لها من أثر، وليس بالضرورة أن يكون المفقود من المخطوط العربي غير موجود بالفعل، فربما كان بعض هذه الكنوز حبيس المكتبات العامة أو الخاصة؛ ينتظر أن تمتد إليه يد الإحياء التي يملكها المُجِدُّون من المحققين مكتشفي كنوز العلم من بين ركام المخطوطات العربية، يسر الله تعالى الخير لهذه الأمة المجيدة.

عماد عبد الحميد أحمد حسين

دبلومة التراث والمخطوطات ٢٠٢١م.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

كتب مطبوعة

أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تقي الدين أبو العباس الحراني (ت ٧٢٨هـ).
مجموع الفتاوى، ت.عبد الرحمن بن محمد قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب، أبو بكر البغدادي (ت ٤٦٣هـ).
تقييد العلم، دار إحياء السنة النبوية-بيروت.

أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، أبو عبد الله المروزي (ت ٢٤١هـ).
المسند، رواية القطيعي عن عبد الله بن أحمد بن حنبل، ط.الرسالة، ت. شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخَلَّال، أبو بكر البغدادي الحنبلي (ت ٣١١ هـ).
كتاب السُنَّة، دار الراية، ت.د.عطية الزهراني، الرياض، ١٤١٠هـ، ١٩٨٩م، طبعة أولى.

خالد السعيد
حرق الكتب، تاريخ إتلاف الكتب والمكتبات، دار أثر، السعودية.

الزبير بن بكار بن عبد الله القرشي الأسدي المكي (ت ٢٥٦هـ).
الأخبار الموفقيات، ط.عالم الكتب، ت.سامي العاني، بيروت، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.

أ.د عبد الستار الحلوجي

المخطوط العربي، مكتبة مصباح، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

عثمان بن عبد الرحمن، أبوعمرو، تقي الدين المعروف بابن الصلاح (ت ٦٤٣هـ).
معرفة أنواع علوم الحديث، ويُعرف بمقدمة ابن الصلاح، ت. نور الدين عتر، دار الفكر- سوريا، دار الفكر المعاصر - بيروت، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

علي بن إبراهيم النملة

النقل والترجمة في الحضارة الإسلامية، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ-٢٠٠٦م.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ابن الساعي، علي بن أنجب (ت ٦٧٤هـ).

مختصر أخبار الخلفاء، المطبعة الأميرية-بولاق-مصر-١٣٠٩هـ.

لوسيان بولا سترون

كتب تحترق (تاريخ تدمير المكتبات)، ترجمة: هاشم صالح ومحمد مخلوف، مراجعة: عبد الودود العمراني، الناشر: وزارة الثقافة والفنون والتراث – قطر – ٢٠١٠م.

محمد بن إسماعيل بن إبرهيم، أبو عبد الله البخاري (ت ٢٥٦هـ)

الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ت.محمد زهير الناصر، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

محمد بن جعفر، أبو عبد الله الكتاني.

نظم المتناثر من الحديث المتواتر، الكتاني، ت.شرف حجازي، دار الكتب السلفية، الطبعة الثانية.

مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١هـ)

المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم = صحيح مسلم، ت.محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي-بيروت.

ناصر الحزيمي

حرق الكتب في التراث العربي، منشورات الجمل، لا تاريخ.

ياقوت بن عبد الله الرومي، أبو عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ).

معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم، أبو عمر النمري القرطبي (ت ٤٦٣هـ).

جامع بيان العلم وفضله، دار ابن الجوزي، ت.أبي الأشبال الزهيري، السعودية، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م، طبعة أولى.

مقالات

رائد السمهوري

مقال: صلاح الدين بطل أم حقير، جريدة الوطن السعودية، ٢٠١٧/٥/٢٢.

محمد شعبان أيوب

مقال: مكتبات قرطبة العامرة، موقع قصة الإسلام.

شبكة الألوكة - قسم الكتب